زوجته من زوجها الاول (ربيبة) فشاركه طيباريوس في قيادة الجيش والامور الادارية وبعد موت اوغسطس عينه مجلس شيوخ بالاجماع امبراطورا للدولة فكان له من السلطة ماكان لاوغسطس . وكن طيباريوس جندياً قديراً وادارياً محنكاً سارت الامور في عهده على ما يرام. ولما توفي طيباريوس تولى الحكم من بعده ابنه ومن ثم غايوس قيصر ابن حفيد اوغسطس الملقب بكاليفا (الحذا الصغير) حيث لقبه جنوده، وما كاد يحس بالسلطة الواسعة التي صارت له حتى ظهرت سجاياه الحقيقية فتمادى في الغي والظلم والاضطهاد فكان شبه مجنون لذلك اغتاله احد الضباط بعد ان حكم ٤ سنوات (٤١–٤٥م)، وفيما كان رجال الحرس الملكي يفتشون القصر وينهبون مافيه وجدوا شخصاً مختبئاً في احدى غرفه يرتعد من الخوف اسمه كلوديوس حفيد طيباريوس وعم كالغلا (كاليجولا) كان ناحل الجسم ضعيف القوى الجسدية والعقلية وهو في الخمسين من عمره ولكن الحرس نادوا به امبراطوراً رغم اعتراض مجلس الشيوخ، وبعد حكم هذا الامبراطور تسنم العرش الامبراطوري مجنون آخر هو نيرون سليل اسرة اوغسطس فكان في حكمه جائراً لجأ إلى زيادة الضرائب على الولايات كما انه اسرف في قتل الاشراف والاغنياء وكان سيئ الظن بالناس فقتل معلمه وامرأته ووالدته وكثير من الابرياء فسخط الناس عليه ونقموا منه افعاله الشريرة فآل الامر إلى سقوطه، وحلت بروما نكبة شديدة من جراء النار التي اندلعت فيها لمدة اسبوع نتيجة اشعال نيرون النار فيها لاعتقاده بانه سوف يبني مدينة ابهى وافخم منها، ومما زاد من شر نيرون هو اتهام المسيحيين باحراق روما فقبض عليهم وقتلهم، لذلك زحفت الجموع الثائرة ورفعت لواء الثورة فهرب نيرون واختبأ ومن ثم انتحر في عام ٦٨م وبذلك انتهى آخر متسلط من اسرة اغسطس، وتسلم الحكم نفر من القواد العسكريين يدعى فسباسيانوس وعين امبراطورا سنة ٦٩م وابتدأ حكمه في عملية الاصلاح العام لما تصدعت به اركان الامبراطورية ، حتى تسنم

الحكم القائد العسكري تراجان الذي اعاد مجد روما إلى سابق عصرها وان كانت هناك الحروب في منطقة آسيا الصغرى وخصوصاً النزاع الحاد بين الفرثيين وبين الامبراطورية الرومانية على امتلكات السورية ، الا انه توفى بعد تقهقره امام قوات الفرثيين في عام ١١٧م فتسنم الحكم هادريان وفي عهده حدثت جملة تغييرات مهمة في الجهاز الاداري منها الغاء نظام الالتزام الاداري في جباية الضرائب مع تنظيمات مهمة في الدولة كان من نتيجتها استتاب الامن والرخاء كذلك ضبط شؤون الدولة واتساع نطاق سلطة الامبراطور بالتفرد بالحكم دون مشاركة مجلس الشيوخ ، الا ان الامور اخذت بالتقهقر رغم ماكان يرى في البلاد من مظاهر النجاح والرخاء . وقد استبان هذا التقهقر في نهاية حكم هدريان حيث تسلم الحكم من بعده انطونيوس الملقب (بيوس) (التقي) الذى كان على جانب عظيم من الحلم والفضل والعدل فلم تحدث في عهده اية صدامات وقد عمل جاهدا في سبيل المحافظة على هيبة الامبراطورية فشيد الاسوار الضخمة على الحدود الشمالية للحد من هجمات برابرة الشمال . اما خليفته مرقس اوريليوس فقد وجد نفسه في موقف صعب لان الفرثيين اخذوا بمهاجمة الحدود الشرقية للامبراطورية الرومانية فارسل مرقس جيشاً لمحاربتهم واستمر القتال لمدة اربع سنوات تزعزعت خلالها اركان الامبراطورية الرومانية نتيجة قوة الدولة الفرثية وسيطرتها على الشرق القديم هذا إلى جانب انتشار مرض الطاعون الذى اهلك اعداد ضخمة من الرجال في الوقت الذى كانت فيه البلاد بأمس الحاجة اليهم . وصادف في نفس الوقت هجوم برابرة الجرمان على الحدود الشمالية للامبراطورية في عام ١٦٧م فانقضت بذلك فترة الهدوء في ايطاليا إلى جانب انهاك مالية الدولة إلى الحد الذى اضطر فيه الامبراطور إلى بيع جواهر تاجه ليشترى بأثمانها معدات حربية لجيشه ، وظل مرقس يحارب الجرمان إلى نهاية حياته ، واضطر في الاخير إلى مهادنة الجرمان

والسماح لهم بدخول البلاد والاقامة فيها بصفة فلاحين الا ان هذه السياسة عادت على البلاد بنتائج وخيمة .

على ان عوامل التقهقر بدأت تسير في جسم الامبراطورية الرومانية نتيجة الفوضى والحروب المستمرة بحيث بدأ العالم الروماني يختلف عما كان عليه في السابق .

من المعلوم ان الامبراطورية الرومانية قد قطعت شوطاً كبيرا من التقدم الحضاري وهذا ما لمسناه من التنظيمات الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية إلى جانب ظهور المباني الفاخرة والمدارس العديدة التي ادت إلى انتشار الثقافة واللغة اللاتينية إلى جانب انتاجها في الرجال الذين ساهموا مساهمة كبيرة في الآداب والثقافة والفنون والتشريع إلى جانب الامور العلمية التي برعوا بها مع احياء التراث اليوناني حيث بدأت حركة الترجمة من اليونانية إلى اللاتينية فازداد عدد الادباء وكثرت المكتبات التي انشأتها الحكومة وكانت مباحة للجميع هذا إلى جانب بروز طبقة من الفنانين الرسامين والنحاتين فبلغت الحضارة الرومانية إلى اعلى درجات التفوق ..

ولكن مع ذلك كانت الامبراطورية تعاني من العلل الداخلية والخارجية فكان التأخر الزراعي يزيد على مر السنين وخليت الاراضي وان كانت قد قررت عليها الضرائب الباهضة تنتقل إلى ايدى الاغنياء اهل القوة والجاه فتأخرت الزراعة نتيجة الضرائب الثقيلة ونتيجة هجرة الفلاح من الريف الايطالي فبارت الارض وعلاها الشوك والاعشاب الضارة حتى اصبحت ايطاليا عاجزة عن انتاج الكميات الكافية من الطعام ، هذا إلى جانب التقهقر في الامور التجارية والمالية لانه لم يبق في البلاد العدد الذى يستطيع ان يغطي عملية ابتياع السلع التجارية من اصحابها فقلت الاسواق التي كانت تروج فيها مصنوعات المدن المختلفة واصبحت هذه الاسواق غير قادرة على تصريف بضائعها مما سبب في تأخرها هذا إلى جانب البطالة التي عمت في المدن

ونزوح اكثر الصناع إلى روما مما زاد من عدد الفقراء في المدينة إلى جانب النقص في كمية المعادن الكريمة لعملية سك النقود فأدى إلى تأخر الاعمال التجارية وذلك لاسباب عديدة لم تكن الحكومة قادرة ان تحصل على المقدار اللازم من المعادن الثمينة فاضطر الاباطرة ان يسكوها من مزيج مغشوش من المعادن مما حط من قيمتها التجارية .

لذلك فمن المستحيل ان يكون لهذه الامبراطورية جيشاً تعتمد عليه وخزينتها خاوية من الدراهم ، وبما ان حماية الضرائب كانت نقداً فاصبح من المستحيل وجودها لذا فقد اضطرت الحكومة ان تستوفيها من الحنطة والغلات الزراعية الاخرى ، وكانت رواتب الجيش تؤدي من الحنطة ، اما في مناطق الحدود فقد كان من الصعوبة دفع رواتب الجيش ، لذلك اقطعوا إلى الجنود اراضي لكي يزرعونها وأجيز لهم ان يتأهلوا ويقيموا في اكواخهم قرب الحدود ، لذلك فانهم لم يكونوا يدعون إلى التدريب او لصد غارات البرابرة فنسوا التدريب العسكري الذي دربوا عليه سابقاً ، وامسوا ضعفاء لايستطيعون ممارسة مهنة الجندية ، هذا إلى جانب النقص الكبير في عدد الجنود نتيجة الاوضاع المالية المتردية لذلك فقد كان لسوء الاحوال المعاشية والتمايز الطبقي عامل مهم من عوامل الثورة التي إبتدأت من موت الامبراطور مرقس سنة ١٦٠م وتولي ابنه الامور وكان على شاكلة نيرون ، انبرى له جماعة من الجيش واغتالوه واخذ الجنود يقتتلون فيما بينهم لان كلا منهم يطمع في اغتصاب الحكم ، هذا إلى جانب ان الجنود البرابرة الذين يخدمون في الاقاليم والولايات نصبوا في كل اقليم شخصاً من بينهم اطلقوا عليه لقب الامبراطور . فجعلوا هؤلاء الاباطرة الصغار يقتتلون فيما بينهم في سبيل الوصول إلى قمة الحكم في روما واصبحت الاوضاع في روما غير طبيعية بحيث كلما صعد امبراطور على العرش اغتيل وتكررت عملية الاغتيال مرة بعد مرة حتى بلغ عدد الاباطرة الذين اغتيلوا في تسعين سنة (٨٠) ثمانون امبراطورا جميعهم من قادة جند البرابرة .

لذلك تفاقم امر الفوضى وبلغ السيل الربى في خلال القرن الثالث للميلاد فانهار العمران انهياراً نهائياً وتعطلت التجارة وتهدمت دور العلم واصبح الامن مفقوداً في جميع المدن والاحياء ووهنت قوة الجيش وظهرت عليه امارات الضعف وادرك برابرة الشمال هذه الحالة فاصبحت الامبراطورية الرومانية تحت رحمتهم هذا إلى جانب الهجوم الذى جاء من الشرق المتمثل باحدى القبائل الجرمانية البحرية فجاءوا بسفنهم ودمروا مدن الساحل وكانت عصابات اخرى قد خطفت شبه جزيرة البلقان واعملت ايدى النهب والتخريب في بلاد اليونان ، وتوغل البرابرة في ايطاليا ونهبوا اكثر المدن في شبه الجزيرة الايطالية .

ادت هذه النتيجة إلى قسمة الامبراطورية الرومانية إلى قسمين وهذا الانفصال لم يأت فجأة بل نتيجة حتمية نتيجة تأسيس القسطنطينية (١) فكان القضاء المبرم على سلطة روما .

لذلك لم تبق الامبراطورية بعد هذه الاحداث سوى بضعة اعوام فتوالت عليها المصائب والمحن ، واخيرا سقطت روما على يد احد قواد القبائل الجرمانية المسمى (اوداسر) وخلع آخر امبراطور في عام ٤٧٦م .

---

(١) عبد القادر يوسف ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٨